سمير فى باريس

— ٤ —

أخى علىٌ ،

أريدُ أنْ أحدِّثَكَ فى هذه المرَّةِ عن قصرِ فرساىَ ذلك القصرِ العجيبِ الذى كثيراً ما سمعْنا عنهُ فى مناسباتٍ متعدِّدةٍ . وأريدُ أنْ أقدِّمَ لك فرساىَ قبلَ كلِّ شىءٍ : إنَّها ضاحيةٌ من ضواحى باريسَ تقعُ فى الجنوبِ الغربىِّ منها ، وتبعدُ عنها بمقدارِ ١١ ميلاً ، يقطعُها القطارُ فيما لا يزيدُ على عشرينَ دقيقةً . وتمتازُ هذه الضاحيةُ باستقامةِ شوارعِها استقامةً لا التواءَ فيها ، وتتقاطعُ تلك الشوارعُ مشَى فى زوايا قائمةٍ .

وكانَ قصرُ فرساىَ هذا مقرًّا لملوكِ فرنسا الأقدمينَ : لويسَ الثالثَ عشرَ والرابعَ عشرَ والخامسَ عشرَ والسادسَ عشرَ ، كما كانَ منْ بعدِ ذلكَ مقرًّا للإمبراطورِ العظيمِ « نابليونَ » .

ويكفى أنْ تعلمَ ذلكَ ، وأنْ تعلمَ أيضًا أنَّ طولَ الوجهةِ الرئيسيةِ لهذا القصرِ ٥٨٠ مترًا وعددَ النوافذِ التى بها ٣٧٥ نافذةً ، لتتصوَّرَ مبلغَ الأبهةِ والفخامةِ اللتينِ يمتازُ بهما هذا القصرُ . وأنَّ قاعاتِه العديدةَ الفسيحةَ ، وأثاثَه الفاخرَ الثمينَ ، وحدائقَه البديعةَ المنسَّقةَ ، وفوَّارتَه الضخمةَ الجميلةَ ، كلُّ ذلكَ يجعلُ الزائرَ يسبحُ فى عالمٍ منَ الخيالِ ، يكادُ يثيرُ فى نفسِهِ الشكوكَ فى أنَّ ما يراهُ حقيقةٌ واقعةٌ ملموسةٌ . سرْنا فيه ننتقلُ من ردْهةٍ إلى ردْهةٍ ومنْ حجرةٍ إلى حجرةٍ ، حتَّى دخلْنا قاعةَ المرايا ، وهى قاعةٌ فسيحةٌ يبلغُ طولُها ٢٣٥ قدمًا ، حُلِّيتْ جدرانُها بمرايا هائلةِ الحجمِ . وفى هذه القاعةِ التاريخيَّةِ وُقِّعتْ معاهدةُ السِّلمِ بين إنجلترا والولاياتِ المتَّحدةِ فى عامِ ١٧٨٣ ، وفيها أيضًا وُقِّعتْ معاهدةُ الصُّلحِ بين ألمانيا والحلفاءِ فى ٢٨ يونيه سنة ١٩١٩ بعدَ حربٍ طاحنةٍ دامتْ أربعَ سنواتٍ .

ويرَى الإنسانُ على جدرانِ هذا القصرِ صورًا كثيرةً كبيرةَ الحجمِ ، تمثِّلُ الملوكَ والأمراءَ وعظماءَ القوَّادِ فى مواقفَ متعدِّدةٍ . ولنابليونَ من هذه الصُّورِ نصيبٌ كبيرٌ .

لا شكَّ أنَّكَ أدركْتَ منْ حديثى هذا أنَّ قصرَ فرساىَ أصبحَ الآنَ متحفًا مفتوحًا لكلِّ قاصدٍ . ولا أبالغُ مطلقًا إذا قلْتُ لكَ إنَّهُ لا يزورُ باريسَ زائرٌ لا يضعُ « فرساىَ » فى رأسِ برنامجِهِ ، مهما قصُرتْ مدَّةُ زيارتِه .

ولستُ أنسَى ، يومَ ذهبْنا لزيارةِ القصرِ ، أنَّهُ

كانَ يَمُوجُ بالزّائِرِينَ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَجْنَاسِ . وَكُنْتُ أَسْمَعُ الْأَدِلاَّءَ يَشْرَحُونَ لِجَمَاهِيرِ السَّائِحِينَ بِلُغَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ : فَهُنَا رَهْطٌ مِنَ الإِيطَالِيِّينَ ، وهُنَاكَ آخَرُ مِنَ الامْرِيكِيِّينَ وثَالِثٌ مِنَ الْأَلْمَانِ ورَابِعٌ وخَامِسٌ وسَادِسٌ مِنْ أُمَمٍ أُخْرَى مُخْتَلِفَةٍ .

وَجَلَسْنَا نَسْتَرِيحُ بَعْدَ سَيْرٍ طَوِيلٍ مُتَوَاصِلٍ . وَأَطْرَقَ وَالِدِي يُفَكِّرُ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : « سُبْحَانَكَ رَبِّي بِيَدِكَ الْأَمْرُ تُعْطِي الملْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الملْكَ

إحدى الفوارات التى فى حدائق فرساى

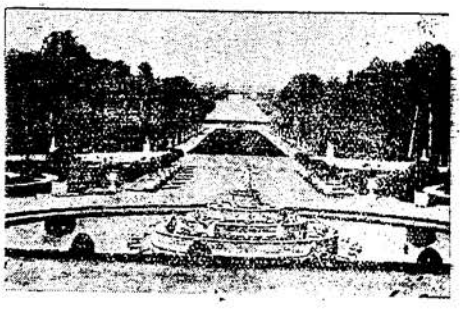

جانب من حدائق فرساى

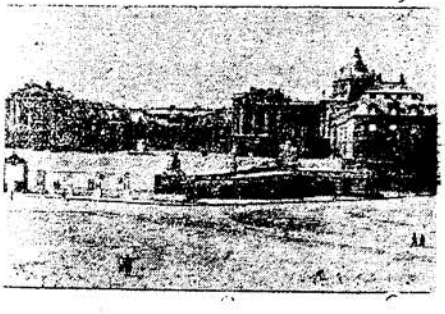

جانب من القصر

إحدى قاعات الاستقبال

قاعة المرايا بقصر فرساى

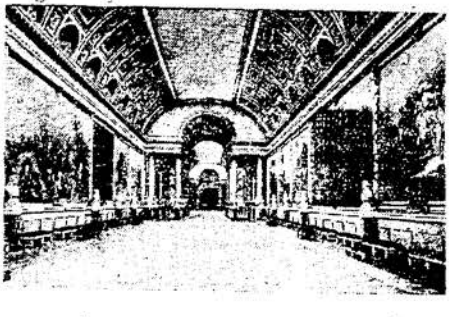

جانب من الصور الكبيرة المنقوشة على الجدران وتمثل القواد فى مواقع مختلفة

مِمَّنْ تَشَاء ، وتُعِزُّ مَنْ تَشَاء ، وتذِلُّ مَنْ تَشَاء — مَنْ ذَا الَّذِى كانَ يَظُنُّ أَنَّ نَابُلْيُونَ العَظِيمَ الذى عَاشَ هُنَا ، وَتَمَتَّعَ بِكُلِّ مَا تَصْبُو إليه نَفْسٌ طَمُوحَةٌ ، يُهَان كَمَا أُهِينَ وَيُذَلُّ كَمَا أُذِلَّ ، ويَمُوتُ كَمَا مَاتَ وَحِيدًا فى حُجْرَةٍ ضَئِيلَةٍ حقيرَةٍ . » ثُمَّ نَهَضَ وَالِدِى فُجَاءَةً ، وَقَالَ : « سَأُرِيكَ الآنَ أَيْنَ مَاتَ نَابُلْيُونُ لِتَرَى كَيْفَ يَهْبِطُ العَالِى وَيُذَلُّ العَزِيزُ . » قُلْتُ : « وَلَكِنَّ نَابُلْيُونَ لَمْ يَمُتْ هُنَا . » قَالَ : « أَعْرِفُ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّنَا ذَاهِبُونَ إِلَى مَتْحَفِ الشَّمَعِ ، مَتْحَفِ جْرِيفَانَ . »

لَعَلَّكَ تَذْكُرُ مَتْحَفَ الشَّمَعِ بِلَنْدَنَ — مَتْحَفَ مَدَام تُوسُو — إِنَّهُ لاَ يُسَاوِى كَثِيرًا إِذَا قِيسَ بِمَتْحَفِ جْرِيفَانَ . إِنَّ هٰذَا أَبْهَى وَأَكْبَرُ ، إِنَّهُ لَمْ يَدَعْ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً فى تَارِيخِ فَرَنْسَا إِلاَّ أَخْرَجَهَا فى صورَةٍ نَاطِقَةٍ صَرِيحَةٍ تُطَابِقُ الأَصْلَ تَمَامَ المطَابَقَةِ .

وَسِرْنَا نَبْحَثُ عَنْ مَنْفَى نَابُلْيُونَ ، حَتَّى اهْتَدَيْنَا إِلَيْهِ . فإِذَا بِالْقَائِدِ العَظِيمِ الَّذِى اهْتَزَّتْ لَهُ يَوْمًا أَرْكَانُ العَالَمِ مُسْجًى عَلَى فِرَاشِ المَوْتِ ذَابِلَ الوجهِ شَاحِبَ اللَّوْنِ وقد تَغَطَّى بِمُلاَءَةٍ عليها غَبَرَةٌ . وَارْتَمَى أَحَدُ أَعْوَانِهِ عَلَى مَقْعَدٍ صَغِيرٍ ، يَنْتَحِبُ حُزْنًا عَلَى سَيِّدِهِ .

اسْتَوْلَى علينا شُعُورٌ غامِضٌ رهيبٌ ، وَلَمْ يَتَمَالَكْ وَالِدِى نَفْسَهُ ، فَانْحَدَرَتْ عَبَرَاتُهُ عَلَى خَدَّيْهِ ، وقَدْ رَأَيْتُ كثيراً من النَّاسِ يَبْكُونَ ، وقَدْ رَفَعُوا قُبَّعَاتِهِمْ عَنْ رُءُوسِهِمْ ، وَوَقَفُوا خَاشِعِينَ كَأَنَّمَا هُمْ فِى حَضْرَةِ المَوْتِ ؟

أخوك سمير

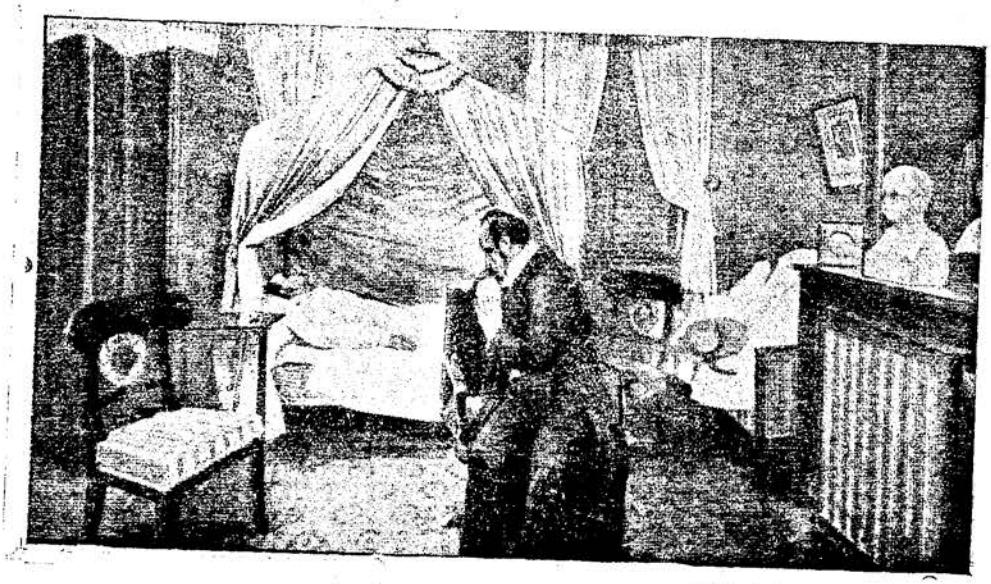

نابليون على فراش الموت